الاشعار

ثورة في الصحراء

« القصة الفائزة بالجائزة الاولى في مسابقة اذاعة صوت الجماهير العراقية لعام ١٩٧٧ »

بقلم محمد سمارة

في عربة القطار ، جلس الرجل العجوز مستندا الى النافذة ، ينظر — من وراء الزجاج — بعينين مطفأتين الى المودعين ، وقد شعر انه اليوم متوحد تماما ، متوحد كما لم يكن متوحدا من قبل .

لبرهة دخلت القطار فتاة صغيرة السن متأنقة .نظرت فيما حولها أول الامر مترددة ، واذ رأت الكرسي الفارغ الى جانب العجوز تقدمت بهدوء وجلست . نظر العجوز الى الوجه الملون ، واليدين الرقيقتين ، استنشق رائحة عطرة ، وغمغم بشيء ما ، وأشعل سيجارة . راقب الاشجار والعواميد ، والوجوه التي أخذت تختفي من وراء النافذة تدريجيا ، وكان يترامى اليه صرير العجلات وهي تتحرك ببطء مصدرة صوتا غليظا أجش ، وقد بدا له ذلك كصوت عظام تتهشم . لدقائق ظهرت الصحراء ، مترامية الاطراف ، متفرشة على امتداد الافق ، ساكنة تماما حتى خال العجوز أن القطار لا يتحرك ، وتساءل مبهورا : الى أين تنتهي حدود الصحراء هذه ؟

وتراءى له المودعون ، يقفون في الطرف الاخر من الصحراء ، يحدقون في الفراغ ، يلوحون بأيد متعبة ، وقد بدوا كحبات من الرمل الناعم .

وقال : أين موقعهم الان من الصحراء ؟

وقالت الفتاة مبتسمة : ماذا تقول ؟

فوجيء العجوز ، نظر في الوجه الملون ، والقلادة الزرقاء اذ هي تتأرجح وقد أدرك بانه كان يفكر بصوت عال ، وقال مرتبكا : لا شيء . لا شيء . انني أفكر في الصحراء فقط . هل هي بلا حدود حقا ؟

ضحكت الفتاة . وضعت ساقا على ساق ، وحركتهما بطريقة مرحة هادئة ، وقالت : ماذا تقول انت ؟

لوح الرجل بيدين حائرتين ، وقد بدت له الفتاة جميلة ورقيقة : انها كبيرة طبعا . كبيرة جدا . ألا تظنين انها تستوعب مئة قطار مثل هذا ؟

كركرت الفتاة ثانية ، واهتز نهداها الصغيران ، وبدت الغمازتان على خديها الحمراوين كوردتين صغيرتين .وقال العجوز في سره : لا شك انهم ينتظرون وصولها الان بلهفة . وربما يتساءلون ما الذي أخرها لهذه الساعة ؟

وبوغت بشجرة رآها تنتصب في الصحراء كعمود كهربي ، شجرة جرداء عارية ، وتساءل : كيف يحدث هذا؟

اقترب من النافذة محملقا ، وأشار باصبع مرتجفة من وراء الزجاج وهمس : ولكن كيف تعيش هذه الشجرة ؟

وقالت الفتاة : أيدهشك هذا ؟

اضطرب العجوز . حملق في الشجرة من جديد : لكنها وحيدة . ألا ترين انها وحيدة تماما ؟

— لكنها جذابة على أية حال . ألا ترى انها تصلح لوحة رائعة ؟

لم يجب الرجل ، وأخرجت الفتاة — من حقيبتها — سيجارة ، وضعتها في فمها ، ونفثت الدخان الى أعلى ، وكان الرجل يرقب ذلك كالمخدر . سحبت مجلة مصورة ، تصفحتها وهي تدندن ، وكان العجوز قد لمح وجوها لاطفال يبتسمون والى جانبهم قطط صغيرة ملونة ، وهمس بحزن: لن أجد أحدا في انتظاري .

نظر الى جهة الشجرة التي كانت قد اختفت تماما ، وتخيلها تنتصب في موقعها ، وكان الغبار يلف الفضاء كدخان أسود ، وتساءل ما اذا كان ما رآه شجرة فعلا ، أم انه كان يحلم فقط . وقال : ولكن لم هي وحيدة ؟ ارتسم القلق على وجهه . راقب الفتاة التي ما زالت تقلب المجلة وتدندن بمرح ، وقد تركت نهديها الصغيرين يندلقان خارج الثوب ، ولم يكن العجوز قد صحا من ذهوله بعد .

في المحطة التالية توقف القطار ، وفوجيء العجوز بحبات ثقيلة من المطر تلتصق — من الخارج — بزجاج النافذة ، وتسيل مكونة خطوطا متعرجة صغيرة . التفت الى الفتاة التي كانت قد غفت ، تاركة مجلتها تنزلق من على ركبتيها الى الارض ، وقال : أكنت قد غفوت أنا الاخر؟ راقب خطوط الماء على الزجاج وهي تتباعد وتتقارب ثم ما تلبث أن تلتم صانعة خطا عريضا واحدا ، ينحدر أسفل النافذة ويختفي . ومن بعيد بدت الصحراء مظلمة تماما . قطعة هائلة من السواد ، بيد أن ثمة خطا ضوئيا متعرجا كان يشق الظلام بين فترة وأخرى كمصباح كهربي ، فتتوهج الصحراء على الاثر ، وتفصح عن ذلك الفراغ الدائري الذي يشبه طبقا كبيرا ، لكنه — وكما فكر العجوز

ـ طبق فارغ تماما . وخطر له ما سمعه عن ذلك الرجل الذي تاه في الصحراء سبعة أيام . لقد ظل المسكين خلالها يبحث عن الاتجاه الذي يريد . يحدق في النجوم التي كانت قد اختفت بسبب من المطر الثقيل ، والغيوم المتراكمة . وحين توقف المطر ـ وكان ذلك بعد ثلاثة أيام ـ وانقشعت الغيوم ، كان الرجل قد سقط اعياء ولم يعد ثمة نبض في صدره . وقال العجوز : الم يكن هناك من يعلم بوجوده ويسعفه في اللحظة الاخيرة ؟

وقبل أن يفكر ثانية فيما اذا كان ما سمعه عن ذلك الرجل حقيقة ، استيقظت الفتاة ، ونظرت فيما حولها أول الامر مندهشة ، حتى اذا وقع بصرها على الرجل لانت ملامحها ، ودعكت عينيها بخجل ، وتناولت المجلة وهي تبتسم. نظرت الى النافذة . واذ رأت المطر هتفت مبهورة: رباه .. انها تمطر. انها تمطر حقيقة ، ولكن لم لم توقظني؟

ذهل الرجل : ولماذا ؟

ـ انني أحب المطر . احبه وهو يتساقط من وراء الزجاج صانعا عوالم صغيرة رائعة . كنت وأنا صغيرة أجلس الى النافذة ، انظر بعينين مبهورتين الى قطرات المطر ، أتخيلها أناسا ، وعربات وشوارع . أراهم يسيرون ، ويضحكون ، ويثرثرون . أناس بلا هموم . عالمهم دمى ملونة ، وضحكات رقيقة . يقولون أن الشعراء وحدهم يحبون المطر . ينظرون من وراء الزجاج مراقبين الحبات اللؤلؤية وهي تنزلق ببطء . ببطء لذيذ ، حيث تتشابك ، وتتفرق ، وتصنع خطوطا تلهم الشعراء لقول الشعر . الشعر الذي تصنعه قطرات دقيقة صغيرة . الم تسمع بهذا ؟

ـ ربما .. لكنني لا أذكر .

ـ انظر .. انها فارغة تماما . خالية من كل شيء . مع هذا فهي تكاد تنطق ، وتبوح بكل شيء ، الم تتأمل صحراء ماطرة من قبل ؟

ـ كنت قد تأملتها وأنت نائمة .

ـ لكنك لم تستمتع بذلك . انك تبدو بائسا تماما .

ـ ذلك اني متعب فقط .

ظلت الفتاة تحملق في الزجاج . لبرهة قالت كالهمس: لقد حلمت قبل قليل اني اركب قطارا مثل هذا بالضبط . قطارا كان يتحول أحيانا الى طير أبيض ، يرفرف باجنحته التي لم أكن لاعرف ممم صنعت هي ، ويحلق عاليا ، عاليا فوق الصحراء التي تحولت الى بساتين خضراء ، وجداول وكان الناس يطلون من النوافذ فرحين ، ضاحكين ، دون دهشة ، كأن من العادة أن يكون للقطار اجنحة .

ضحكت الفتاة : هل حلمت بمثل هذا ؟

ـ كلا ، لكنني حلمت قبل قليل انني عار في الصحراء وحيد .

اتسعت عينا الفتاة . فتحت فمها مندهشة ، وأردف العجوز : واذ وجدت نفسي وحيدا ، عاريا الا من ثياب شوكية ، رحت أتطلع فيما حولي وأقول مخاطبا أحدا ما : كيف حدث أن فقدتهم ؟ غير انه لم يكن ثمة من يستطيع سماعي بالمرة سوى الصحراء والفضاء اللامتناهي . تطلعت الى الشجرة الوحيدة التي كنت اراها أنى تلفت . تقدمت منها واتكأت على أغصانها العارية . وفجأة ، واذ حاولت النهوض ، وتكملة المشوار الذي لم أكن أعرف عنه شيئا ، شعرت بقطرات من الماء تبلل رقبتي . فقلت في نفسي : عجبا .. هل أمطرت السماء والفصل صيف ؟

وحين نظرت الى أعلى ، اكتشفت اني واهم فيما ظننت فلا مطر ولا غيوم البتة ، وانما كانت الشجرة تبكي.

قالت الفتاة: ذلك وهم ، ربما كان من تأثير أكلةدسمة.

قربت وجهها من النافذة . انفرش أنفها على الزجاج، وقالت هامسة :

ـ لا شك انهم ينتظرونني الان في ذات المحطة ، يرقبون قدومي ، ويتساءلون في أية ساعة سيكون ؟ الا تعتقد انهم يقفون الان تحت المطر ؟

ـ لا أدري .

ـ انهم يقفون حتما . ينظرون الى القطار وهو ينزلق على القضبان ببطء . ببطء جميل ، متجها الى حيث يقفون.

★ ★ ★

بعد دقائق ، توقف المطر . وكانت الفتاة ما زالت ملصقة وجهها الى النافذة ، تنظر الى الصحراء ، ترقب حبات المطر الضئيلة وهي تنكمش على الزجاج وتلتحم بهدوء ، وقد بدا ذلك للعجوز مثيرا للمراقبة على نحو ما . ضحكت الفتاة ، واستدارت اليه ، وكان العجوز قد لاحظ أصباغها التي بهتت قليلا ، وسال جزء منها على رقبتها البيضاء ، وقالت : لربما رويت شجرتك الوحيدة الان .

قال العجوز : من يدري . فربما تكون قد غرقت .

ـ يا الهي . كيف هذا والصحراء تستوعب بحرا من المياه ؟

نظرت ثانيةمن وراء الزجاج . لبرهة قالتبصوتفرح:

ـ انني أكاد أراهم من هنا ، يلوحون بايديهم للقطار اذ هو يقترب . انظر ... الا تراه يلوح ، وقد ارتدى معطفه المطري ، ووضع تلك الوردة التي .. التي ..

اقترب العجوز مندهشا . حملق من وراء الزجاج : انني لا أرى أحدا ، لا أحد البتة سوى الظلام والمطر .

لم تجب الفتاة . مسحت بباطن كفها الزجاج الذي ظل مضببا ، ثم التفتت الى الرجل :

ـ هل تبغي المحطة التالية ؟

ـ لا أدري .

ـ يا الهي . أهناك انسان لا يعرف أين يتجه ؟

ـ انني ذاهب الى مكان ما على أية حال . لم يعد ثمة من ينتظر وصولي .

ـ ولماذا ؟

فيما مضى كان الرجل يجلس في غرفته الصغيرة ، ينظر من وراء النافذة الى الطريق ، ويتساءل بمزيج من اللهفة والقلق : هل سيعود أحمد في اجازته المعتادة اليوم؟

وحين يلمحه قادما من رأس الطريق ببدلته الكاكية فارعا ، ضاحكا ، يندفع الرجل بفرح الى الباب ، وما يلبثان ان يجلسا ، ويثرثرا بلهفة ، يتدافع الحديث من فميهما سريعا ، سريعا كطلقات البندقية التي يحملها احمد. يلغطان في آن واحد : عن الاجازة المقبلة ، والعملية الفدائية التي قام بها ، والخسائر التي لحقت بالعدو . ثم يصبان الشاي ، ويبدأ حديثهما همسا ، ويصبان شايا اخر واخر واذ ينتهي الابريق ، يكون الاثنان قد راحا في سبات عميق .

في الاونة الاخيرة ، وكان العجوز ينتظر وراء النافذة كالعادة ، فاجأه احساس أن ثمة شيئا حدث . واذ دق الباب بعد لحظات ، مد رجل لم يره العجوز من قبل يده برسالة . اندهش العجوز ، وعاوده ذلك الهاجس الذي تحول في تلك اللحظة الى يقين. وقال : احدث شيء لأحمد؟

ارتبك الرجل ، لكنه أجاب : انها رسالة من القيادة .

لحظتها أدرك العجوز كل شيء ، وهمس : هل مات أحمد ؟

لم يجب الرجل الذي بدا الحزن في عينيه واضحا ، لكنه قال اخيرا بصوت مرتعش : لقد مات وهو يحتضن سلاحه .

★ ★ ★

لم يكن الرجل العجوز ليدرك تمام الادراك — وغالبا ما كان يصيبه هذا — ما اذا كان قد أخبر الفتاة بما كان يدور في رأسه . بيد أن وجه الفتاة وهي تنظر اليه برفق ، وتسمعه بين لحظة وأخرى نكتة طريفة ، وتصب له شايا من الترموس الذي لم يكن العجوز قد لحظه معها اذ دخلت ، جعله يوقن انه أخبرها بكل شيء ، وانها على علم بما يختلج في صدره الان . ضحكت في وجهه . صبت له كوبا آخر من الشاي ، وكانت الشمس قد بزغت من وراء الافق ، واندلقت اشعتها من خلال النافذة الى وجه العجوز . سحبت الفتاة مجلة ، وتأملت صورة رجل يداعب مجموعة أطفال ، وقد بدا الرجل ، والاطفال يداعبون لحيته البيضاء الكثة مسرورا للغاية . ناولت الفتاة المجلة للعجوز الذي ما ان رأى الصورة حتى أشرق وجهه ، وقال :

— كان أحمد يفعل مثل هذا تماما . أتصدقين انه كان يفعل هذا معي وهو صغير ؟

— وهل كانت لك لحية كثة كهذه ؟

— أجل . لكنني قصصتها فيما بعد .

فغرت الفتاة فاها : ولماذا ؟

تردد الرجل . قال ضاحكا : لانني لو لم اقصها لكان قد انتف شعيراتها واحدة واحدة .

ضحكت الفتاة بشدة . مالت على الرجل العجوز دامعة العينين ، واذ هدأت ، قال الرجل :

— أتصدقين انه لم يكف يوما عن كتابة الرسائل الي من هناك ! اخر رسالة وصف فيها وجهي انه حديقة مزهرة . أصحيح ان وجهي حديقة مزهرة ؟

كركرت الفتاة . أخرجت سيجارة ناولتها للعجوز ، واشعلت هي أخرى . نفث العجوز الدخان بهدوء :

— كتب في احدى رسائله ان خطواتنا تزهر بساتين وانهارا وجداول . أليس رائعا أن تزهر الخطوات جداول؟

أشرق وجه الفتاة فجأة . قالت بحماس :

— من يقول هذا شاعر . مؤكد ان أحمد شاعر .

قال العجوز : حسنا . انه يحب الزهور أيضا .

★ ★ ★

قالت الفتاة :

— انظر .. تلك شجرة اخرى وحيدة .

نظر الرجل من وراء النافذة . رأى الشجرة منتصبة وسط طوفان من الرمال والفضاء اللامتناهي . قال :

— ولم هي وحيدة ؟

— لكنها ستثمر يوما ما . يأتي الخريف فتتساقط بذورها التي سرعان ما تنبت وتمد جذورها في الارض ، وتتحول الى شجرات أخرى قريبة . وما هي الا سنوات حتى تمتلىء الصحراء وتتحول الى مساحة كبيرة من الاخضرار .

انبسطت اسارير الرجل . ضحك بسرور :

— أتدرين اني سهوت عن ذلك ؟

— ولماذا ؟

ارتبك الرجل . لوح بيدين مترددتين ، ورمى سيجارته التي لم تنته بعد . نظرت الفتاة من وراء النافذة ، ومسحت بيدها الزجاج الذي بدا شفافا لامعا ، ثم الصقت خدها الذي انفرش على الزجاج كقطعة من القشدة ، وتمعنت في الصحراء . قالت :

— انهم يظهرون ثانية . أراهم يلوحون وقد حمل بعضهم باقات من الزهور . ترى هل يستطيعون رؤية يدي اذا ما لوحت ؟

استدارت الى العجوز :

— الا يسرك أن تراهم ؟ انظر . انهم ما زالوا يرفعون مظلاتهم كما لو كانت السماء تمطر . أليس ذلك طريفا ؟

نهض العجوز . الصق وجهه في الزجاج . للحظة قال مندهشا :

— يا الهي ! انهم يبدون من هنا بوضوح . بوضوح حقا ، حتى يخيل الي اني أكاد اذا مددت يدي أن أمسك بهم . لا شك انهم يروننا . يروننا بوضوح أيضا ، والا ما لوحوا بايديهم ، ولكن من هو هذا الواقف فيما بينهم ؟ اني أراه مرتديا بدلة كاكية ، وقد وضع على كتفيه سلاحا؟

اقتربت الفتاة من النافذة . وضعت يدها على كتف العجوز الذي ما زال ملصقا وجهه في الزجاج كصبي مرح. كانت الشمس لحظتها قد أطلت من وراء الافق ، وغمرت مساحة كبيرة من الصحراء ، واندلقت اشعتها الى جوف القطار الذي ما فتيء ينزلق فوق القضبان الحديدية ببطء وهدوء كسحابة .